تجربة الخمرة في شعر عرار
«دراســـة تحليلية»

د. محمد احمد ربيع
كلية الاداب - جامعة جرش

ملخص البحث

يرصد هذا البحث ، تجربة الخمرة في شعر عرار . وقد توصل صاحبه الى ان عرارا هو سيد شعراء الخمرة في هذا العصر . وعلى الرغم مما حققه هذا الشاعر من الافكار الناضجة والمعاني الجديدة في قصيدة الخمرة ، الا انه ظل مشدودا الى جذور هذا الموضوع الممتدة الى القديم وعلى الخصوص لدى الشاعر أبي نواس ، وكذلك تأثره بأفكار عمر الخيام .

وقد عالج البحث تجربة الخمرة لدى عرار ، في اسبابها ومعانيها وافكارها وأكد على الدلالات الجديدة التي سعت الى تحقيقها ، كالدلالات الاجتماعية والانسانية والاخلاقية ، فضلا عن معالجة الجوانب الشكلية المتصلة بهذه التجربة ، كالصورة واللغة والاساليب البيانية ، وفضلا عن بحث مسألة الصدق الفني في معالجتها .

Summary of the Research

This research looks into the theme of intoxicating drink in Arar's poetry. The researcher has come to the conclusion that Arar is the master poet of intoxicating drink in this age. In spite of the mature ideas and the new meanings the poet has achieved in the poetry of intoxicating drink, he remained tied to the roots of this subject which extend into the past , specially that of the poet Abu-Noas and the influnce of Al-Khiam's ideas on Rime.

The research treats the theme of intoxicating drink in Arar's poetry, its causes, meanings and thoughts. It also emphasises the new significances which it attempts to achieve, such as the social, human, and moral significances. It treats as well the formal aspects related to this theme, as imagery, language and rhetorical devices. In addition it investigates the question of artistic fidelity in its treatment.

توطئة

احتفظ الشعر العربي في تاريخه الطويل ، بالكثير من الموضوعات الشعرية التي اضحت منجزا تقليديا على مر العصور ، كالمديح والهجاء ، والفخر والوصف والرثاء والغزل والحكمة وغيرها . وكان وصف الخمرة ، واحدا من الموضوعات التي ارتبطت بتاريخ الشعر العربي منذ العصر الجاهلي . ويذكر لنا مؤرخو الشعر ، أن هذا العصر ، يحتفظ بالعديد من الشعراء الذين اشتهروا بوصف الخمرة ، وفي مقدمتهم طرفة والاعشى وحسان بن ثابت وعبيد بن الابرص وعدي بن زيد .

فوصف الشاعر الجاهلي (مجالس اللهو وحانات الخمر وما فيها من قيان ورقص وغناء . وقد وقفوا عندها وقفة هادئة متأملة فيها فن وابداع ، وتناولوا الخمر ووصفوا مجالسها وأثرها في شاربها وذكروا لونها وصفاءها وطعمها وماتفعله في النفوس ، وكان لحبهم للخمر ان شبهوا ريق محبوباتهم بالخمر طيباً ونكهة) . (١)

وقد عدَّ شعراء الجاهلية شرب الخمرة (من علائم السخاء والاريحية والكرم وانها تبعث في النفوس ، القوة والنشوة ، وتهز للكرم والعطاء) . (٢)

ووصف عدي بن زيد سقاتها ولونها وطعمها وشكلها في الكأس (٣) ، ولا نجد شاعرا جاهليا يخلو شعره من ذكر الخمر والتفاخر بشربها او وصف مجالسها ، والسعي الى حانوتها وسبائها (٤) .

ويعد الاعشى سيد شعراء الجاهلية في وصف الخمرة ومجالسها واثرها في النفوس وفي وصف سقاتها وكؤوسها ، وما يسودها من صخب وغناء ورقص ولذة (٥) .

ولم يترك الاعشى شيئا يتعلق بالخمرة الا وصفه واتى على ذكره ، حتى انه وفي غير موضع وصف ما كان بينه وبين البغايا من مجادلة ومساومة ، وكذلك ماكان بينه وبين الخمار من جدال ونقاش (ولم يغادر الاعشى معنى من معاني الخمر او صفة من صفاته الا ذكرها وافتن في وصفها ، وقد اجاد في تصوير اثرها في الشاربين ، وفعلها في الرؤوس والعظام والمفاصل) (٦) .

واحيانا يسوقون حديثهم عن الخمر مع (الحديث عن فتوتهم وكرمهم ، وبذلهم ، على نحو مانرى في معلقة طرفة ..... اما عند الاعشى فنجدها فاتحة كثير من القصائد ، تالية لبعض غزله ..... وكأنه يقدسها تقديساً) (٧) .

ووصف الاعشى للخمرة يفيض بالحيوية ، إذ يجسم فيه بيئتها ومجالسها ، ومايقوم فيها من السقاة والمغنيين والإماء الخليعات ، وما يضرب عليه العازفون من آلات لهو ، والاعشى لايصف مجالس الخمر فحسب ، بل يصف وصفا دقيقا أوانيها والوانها ، وماتفعله بعقول الشاربين ..... وهو في ذلك يقترب من ذوق جماعة الماجن في العصر العباسي امثال ابي نواس .

وعلى العموم فان شعر الخمرة عند الاعشى قد اتسم بالدقة والشمولية وصدق العاطفة ، اذ لانكاد نقرأ خمرياته حتى نحس فيها الاحساس الصادق كما نحس القدرة على استيعاب كل دقائقها بعمق وشمولية .

وإذ نمضي الى العصر الاموي ، حيث تتسع الفتوحات وتمتد الى خراسان والعراق وغيرها نجد البيئة الاسلامية الجديدة تنفتح على الحضارات الاجنبية ، فيكثر استمتاع الناس بالحياة وببهرجتها ، ويقبل الشعراء على الخمرة يعبونها عباً شديدا ، ويصفونها وصفا دقيقا ونجد دور الغناء والعبث تمتد الى بيئة الحجاز حيث شعراء الخمرة امثال ابن ميادة وابن هرمة ، وفي العراق نجد امثال سحيم بن وثيل الرياحي التميمي والسرادق الذهلي وحارثة بن بدر ومالك بن اسماء والاقيشر الاسدي. ولهؤلاء الشعراء شعر يذكرون فيه الخمرة التي يعتدون بشربها ويصرون على السعي اليها (٨) .

وحين نمضي الى بيئة خراسان نقرأ من هؤلاء ، الشمردل بن شريك وحماد الراوية وحماد عجرد ويحيى بن زياد (٩) .

وفي العصر العباسي شاع اللهو والاستمتاع باللذة ، وارتبط بسوق الجواري والغلمان وكثرت فيه مجالس الشرب وحانات بيع الخمور ، وانغمس الكثيرون في بؤرة الرذيلة ، وساد العبث لدى الشباب الماجن ، الذي يندفع وراء الشهوات ولقد عكس شعر ابي نواس ذلك الوجه من الحياة الاجتماعية في العصر العباسي (١٠) ويرد من

شعراء الخمرة في هذا العصر ، بشار بن برد ووالبة بن الحباب وحماد عجرد ومسلم ابن الوليد وداوود بن رزين والحسين بن الضحاك والفضل الرقاشي واسماعيل القراطيسي وعلى رأس كل هؤلاء الشاعر ابو نواس الذي قال عنه احد الباحثين انه «اكثر الشعراء نظما في الخمر واكثرهم ابداعا في وصفها ووصف مجالسها وندمانها مما لم يعرف الشعر العربي له مثيلا . ومما تفرد به ابو نواس انه الف قصائد كاملة في الخمر» (١١)

كما انه زاد على كل من تقدمه وفاق كل من جاء بعده في وصف الخمرة ، لأنه جعل منها موضوعات تامة ذات تفاصيل ، وقصر القصيدة على الخمر كما قصر ابن ابي ربيعة القصيدة على الغزل .

والواقع ان ابا نواس لم يكتفِ بوصف الخمرة وصفا ظاهريا وواقعيا بل وعاها وعيا عميقا في احاسيسه ومشاعره وامتزجت بعواطفه واستقرت في وجدانه حتى صار بحق زعيم شعراء الخمرة .. دون منازع .

لكن الاهم من هذا كله هو ماحققه (في قصيدة الخمرة من ملامح القصص والمسرح كالحوار وتعدد الشخصيات وعنصر الزمان وعنصر المكان وما شاع في فنه الخمري من حركة وحيوية تسود جو القصيدة كلها . وكل ذلك في لغة سهلة ممتعة تحقق البساطة في التعبير والمتانة في التركيب والجمال في الصياغة ، مع قدر غير قليل من الصور البلاغية وخاصة الاستعارية منها (١٢) .

والسر في قوة شعر الخمرة عند ابي نواس هو ان هذا الشاعر احب الخمرة حبا جما بل صارت مخلوقا ذا شخصية تأتلف مع ذاتيته وتتصل بأعمق اسرار نفسيته . (١٣)

وابو نواس في تعلقه بالخمرة (يتحدى سلطان الاب وسطوة القانون وقواعد المجتمع ومراسيم الاخلاق واوامر الدين . بل هو يتهكم ويسخر بالاخرين سخرية لاذعة ان هم حاولوا ردعه عن شرب الخمرة (١٤) .

اما نوع حبه للخمرة فيتفوق فيه على كل من سبقه ولحق به ، فهو يحبها حب الاكبار ويعدها شيئا نفيسا وجليلا وعزيزا ، بل يعدها اثمن شيء في الوجود وهو

ينزهها عن كل وضيع وسفيه يحاول الاقتراب منها . فالخمرة عنده لايقدرها حق قدرها ، الا من أوتي نصيبا عاليا من التهذيب واللطف ودماثة الخلق . واكثر مايؤكد عليه ابو نواس في وصفه للخمرة مجلسها ، فقد وضع له شروطا لاتتوافر الا لدى الذين يقدرونها ويعتزون بها .

وعلى الرغم من وصف الشعراء القدماء لضوئها ولونها ، الا ان هذه الصورة تميزت عند أبي نواس بالحركة والتوثب ، وليس هذا فحسب ، فأبو نواس يفلسف الخمرة حين يعدها كائنا حيا وسرا للحياة وروحا متوثبة كذلك هي عنده تصل الى حد التقديس والعبادة بل انه ليحس بها احساسا جنسيا .

ولأول مرة نجد تشخيصا للخمرة حين يشبهها بالعروس التي تخطب ويغالي في مهرها ، بل انه ليعبر عن إحساس الولد للأم (١٥) .

تلك هي المعاني والافكار التي حملتها قصيدة الخمرة عند ابي نواس ، مما لانجد له نظيرا لدى كل من وصف الخمرة وتحدث عنها من الشعراء الذين سبقوه او تلوا عصره .

في شعر عرار

(١)

وإذا مضينا مع عرار في الحديث عن الخمرة وشعرها ، الفينا فيضا من النصوص التي لا يمكن اقتحام ابعادها بيسر وسهولة ، لكثرة ورودها في شعر هذا الشاعر ، الذي اخلص الفن لهذا اللون من الشعر إخلاصا يمتلك فيه العمق ويتحرى معه الصدق دون منازع .

واغلب الظن انه يتصدر فيه كل شعراء عصره . وإذا كان ابو نواس قد اندفع الى شعر الخمرة بدوافع اجتماعية وخلقية ونفسية وغيرها ، فان بعض هذه الاسباب قد دفعت بشاعر هذا العصر الى ان يلج شعر الخمرة من الابواب نفسها .

وبدءا نقول بان الشاعر لم يمارس شرب الخمرة تحديا لدينه او تنصلا من ايمانه

بالله . لقد كان عرار مؤمنا بربه أيماناً واضحا لالبس فيه ، فهو يستعين به في مقارعته للخصوم والرد على الظالمين .

وحادث غدر قد ارادوا فردهم ... بغيض اله النـــاس فانظر عجائبه

اله اذا ماشـــاء ايـــد عبده ... وان شاء فالباغي ترَ الله غالبه (١٦)

وهو في البيت التالي اكثر وضوحا في ايمانه بالله واشد استجابة لاوامره ، حيث يقول :

والـــه مني جانـــب لاأضيعـــه ... وللهو مني والصبابة جانب

لكن هذا يفسر التناقض الذي وقع فيه عرار – كما ابو نواس – بين ايمانه بالله ايمانا لالبس فيه ، وبين تجاوزه له في سلوكه وافعاله .

وشعر عرار الذي بين ايدينا ، يوقفنا على الاسباب الكامنة وراء هذا الموقف ، فعرار لايضمر في نفسه ماليس في لسانه ، على عكس ماكان يراه في مجتمعه من زيف ورياء ونفاق وخداع ، وعز عليه ان تهدر القيم العالية من أناس يتلبسونها زيفا ونفاقا ، أما هو فيطلق العنان لسلوكه في السراء والضراء في أن مما قد يشكل تحديا سافرا للقيم الدينية والاعراف الاجتماعية السائدة :

ادرها ايـهـــا الســـاقي ... ادرهـا انتظـــــم الشـــرب

ودع عمـــان يسكـــرها الـ ... ـريـــاء الوقـــح والكذب (١٧)

وهذا موقف يتحدى فيه الشاعر ، المزيفين من ادعياء الاصلاح على حد قوله .

وفي ظل هذا الموقف الذي يطلقه الشاعر على سجيته وطبيعته ، تصير الخمرة اداة للكشف عن دعاة العدالة ، وتعرية رواد حقوق الانسان ، بل المتظاهرين بالتقوى ودعاتها على حد قوله :

يابنـــت تحقيـق العـــدالة ركنه ... ولع القضاة براحـــة الوجدان

ولعي بكأس في ارتشاف رحيقه ... سكر يحيل النائبـــات اماني

وتظـــاهر المتصـــدرين لبيعهم ... لاعن تقى بحماية الاديان (١٨)

ولاريب ان هذه الافكار تنم عن الصراحة في مواقف الشاعر ، وهي تذكرنا

بالمواقف التي كان يعلنها الشاعر معروف الرصافي في نقده لمجتمعه .

(٢)

اول شيء يكشفه الباحث في تجربة الخمرة عند عرار ، هو ان هذا الموضوع يحقق لديه وحدة موضوعية ، كاملة الابعاد ، في المعاني والافكار وطرق الاداء ويمنح القصيدة العرارية عمقاً عاطفيا كامل الصدق . والصدق في ميدان الشعر هو الفيصل الاخير للحكم على الشاعر وشعره . ولسنا نرى في معظم ماقرأنا لهذا الشاعر – اكثر صدقا واشد صراحة مع النفس والحياة والمجتمع والفن الشعري ، من هذا الشاعر . وهو مايدفعنا الى الاطمئنان بعمق هذه التجربة وواقعيتها وصدقها. ولولا اننا قد الزمنا انفسنا بالمنهج التحليلي المعتمد على النص – اولا ، لكنا قدمنا صورة واقعية لعصر عرار ومجتمعه المتمزق القائم على المفارقة الاخلاقية والاجتماعية ، وهو مادفع الشاعر الى الثورة على واقعه ، والتمرد على مجتمعه ، والتهكم بدعاة الاصلاح ، والسخرية من رجال الدين ودعاته ، متخذا من الخمرة وسيلة للتخفف من همومه واحباطاته وآلامه ، ومن ثم للكشف عن عورات المزيفين والادعياء ومن سار على نهجهم من المنافقين والكاذبين على حد قوله .

واكاد ازعم بان تجربة الخمرة العرارية لوحدها ، تقدم نموذجا واقعيا صادقا لصورة المجتمع ، واخلاق العصر ، والنماذج البشرية التي طالها شعر الشاعر والتي يتناقض فيها الواقع مع المثال ، فضلا عن تجسيد المشاعر النفسية للشاعر ، ومبادئه التي كان ينادي بها ويتطلع الى تحقيقها . ولكن دعوته كانت ترتد الى حيث صدرت ، وكانت نداءاته تتراوح بين الثورة حينا ، واليأس حينا آخر ، ولكنها تجسد في الحالين شخصية الشاعر وتعكس صورة مجتمعه .

اول مايصادفنا في التجربة العرارية للخمرة ، موقفه المعلن عن شربها وحرصه على ان يسمع صوته لآخرين ، وإصراره الشديد على شربها دونما رادع ديني او حرج اخلاقي ، فهو يعلن ذلك في صراحة متناهية تدفعه في ذلك ، رغبة جامحة ، يتحدى بها القيم والاعراف والمواضعات القائمة ، بل انك لتشعر انه يعبر عن نشوة

عميقة حين يعبها عباً فيقول :

اقبل الساقي فقولوا : (حيهلا) وادیروا بینکم کـــأس الطلا

نحـن لانسقي ولکـــن نشرب وإذا الناس مضـوا لانـــذهب

ويتضح إصراره وصراحته وتحديه وصراحته اشد من ذلك في قوله :

اشربـت ؟ اي واللـــه انـــي قد شربت وسوف اشرب (١٩)

وعلى وفق هذا الموقف ، يقول بصراحته المعروفة :

ادرها ايـــها الســـــاقي ادرها ايهـــا الساقـــي (٢٠)

والتكرار في السطر الثاني ، يسلط الضوء على الموقف المعلن الذي يتحدى به الشاعر مجتمعه الرافض لمثل هذا السلوك المتفلت من كل القيم والمبادئ والاصول التي يعتد بها المجتمع . وفي قصيدة الخمرة ، يفلسف عرار الحياة على وفق افكاره ومواقفه التي تنسجم مع رغبته في اللذة ، كتلك التي اعلنها عمر الخيام فإذا هو يصرح :

قد خلقنا الصفا لا للشقا همنا نصفو ونلهو ابدا

بين ناي ورباب وشراب

ويندفع من منطلق فلسفته في الحياة ، ونظرته اليها ، اندفاعا شديدا ، تجاه الخمرة ، حتى يكاد يغرق الى أذنيه من شدة عشقه لها وتمسكه بها وبحيث يرى ان الحياة بدون الخمرة ، لاقيمة لها فيقول عن نفسه : (٢١)

هو لايعيش ولن يعيـش بغير باطيـــة الشـــراب

وإذ يرى قسم من الدارسين ، ان الخمرة كانت وسيلة يتخفف بها الشاعر من همومه ، ويسعى عبرها الى تأكيد فلسفته في الحياة ، ويرفض كل القيم السلبية السائدة في مجتمعه ، فان بعض هذا الشعر يكاد يكون غاية في ذاته حين يصبح قيمة ترتفع على الدين والدنيا كليهما :

سأبيـــــع (الديـــــن) و (الدنـــيا) (بســـكرة)

ويبدو لنا ان عرارا قد تأثر بكل الشعراء الذين فلسفوا حياتهم وافكارهم في ظل علاقتهم بالخمرة ، وما تحققه لهم من شعور بالنشوة واللذة والسعادة حتى أضحت

حياتهم مرهونة بالخمرة ولذائذها واجوائها ففي قول عرار (٢٢):

انا ان مت فاغسلوني بخمر ان ماء الكروم تحيي عظامي

حنطوني بتربتها ثم رشوا كفني من رحيقها المختوم

وادفنوني في حانة عند دن بيننا فسكر الدنان مقيم

تأثر واضح بموقف الخيام وافكاره التي يقول فيها في احدى رباعياته :

فبأوراق كرمة كفنوني

وبكرم بين الاصول ادفنوني

واغسلوني بالخمر فان الخمر فاقت

بصفاها ذاك الزلال الحلالا

ويمعن عرار في هذا الاتجاه اكثر فاكثر حتى تصبح الحياة عنده خمراً وغناء ولهوا وعبثا :

وحياتي لاتسل عن كنهها انها حان وألحان وصدح (٢٣) .

أفيمكن ان يعبر انسان عن حقيقة الحياة باكثر من هذا القول ؟ وكيف نوفق بين هذه الدعوة ، ودعوته السابقة التي المحنا اليها والتي يقول فيها :

ولله مني جانب لاضيعه وللهو مني والصبابة جانب

فأين يذهب الجانب الاول الذي ذكره في هذا البيت ؟ فان دل هذا على شيء فإنما يدل على ان افكار الشاعر قلقة ، وآراءه مضطربة ومواقفه متناقضة .

ولسنا مع من لايرى تناقضا في مواقف عرار إزاء مايحمله شعر الخمرة من افكار بحجة ان (الحاحه على الخمر ذكرا او شربا كان ردة فعل حادة على المفارقة القاسية التي كانت تتحقق امام بصره وبصيرته كل يوم (٢٤) .

اين المفارقة بين مثال الشاعر وواقعه المتردي الذي نلمسه في مجتمعه المتمزق ؟

فلو كان الشاعر عبر عن هذه الفكرة بالعبارة السريعة او الإيماءة الخفيفة او الفكرة المضللة او كان الم لهذه الفكرة ببيت عابر ، لقبلنا هذه الفكرة ، لكننا نجد معظم شعر الخمرة يلح على هذه الفكرة التي تحيله انسانا يغرق في الخمرة الى قمة رأسه بل وجدناه يستعين بمواقف وافكار الخيام وأبي نواس وغيرهما ، ممن غرقوا

قبله بهذا الاتجاه .

ويلح الشاعر على هذه الفكرة ، فيتمادى بها ضاربا كل المبادئ الشرعية والاصول الاجتماعية ، متهكما بها مستهزئا بما هو معروف عن دلالاتها الدينية والانسانية فيقول :

ودع الساقي يدر كأس الطلا حسبة لله فالسكر اصح

وهذه تنقلب فيها القيم والمفاهيم الدينية والدنيوية كما تبدو في شعره ومرد ذلك في رأينا ، هو اشكالية الوعي التي رافقت ولاتزال ترافق الكثيرين من مثقفي هذا العصر في بلادنا . وفقدان هذا الوعي او ضعفه ، مشكلة تطال العالم كله منذ قديم الزمان .

وفي ظل هذا نفسر المفارقة التي وقع فيها عرار حين كان يصدر عن مواقفه وتفسيراته لامور الدين والدنيا على حد سواء . وكان ينطلق في حياته وسلوكه مما كانت تمليه عليه افكاره ومواقفه في غياب الوعي الصحيح لحقائق الكون وفلسفة الحياة والموت ، وما يتصل بهما من ثواب وعقاب ، وهو ماحير العديد من الشعراء الذين تصدوا لها امثال ابي العلاء وعمر الخيام .

وعلى الرغم مما نراه من نضوج في بعض مواقفه في الحياة وعلى الخصوص الجوانب الاجتماعية والسياسية منها ، الا أننا نلحظ له مواقف اخرى لاتشير الى وعيه فيها وفهمه لها فهماً صحيحا وعميقا من ذلك موقفه من الحياة والموت والحساب. والا ، فكيف نفسر قوله :

كتب الله علينا شربها ليس خطأ قدّر الله فنمحو (٢٥)

فهو هنا يبدو مؤمنا بالقدرية ، وبها يعلل شربه للخمرة ، ومحو خطئها تعليلا لاينم عن وعي بالإسلام الذي يتضح فيه طريق الخير من طريق الشر وذلك في قوله تعالى (وهديناه النجدين) (٢٦).

وفي افكاره عن الخمرة ، يقتفي عرار آثار من سبقوه من الشعراء ولكنه يخفق في تجاوز المفارقة التي رافقت رحلته مع الخمرة ، من ذلك قوله :

انها رجس ولكن ربنا شأنه عفو وإعفاء وصفح(٢٧)

وربما استقى هذه الفكرة من أبي نواس الذي عبر عنها بقوله :

قد أسأنا كل الاساءة فاللهم صفحا عنا وغفرا وعفوا

وفكرة ابي نواس سليمة ، لان الشاعر يطلب العفو والمغفرة من الله لذنب اقترفه ، في حين ان عرارا يفسر مبدأ المغفرة تفسيرا خاطئا يبيح له شرب الخمرة التي حرمها الله تحريما صريحا في قوله : (٢٨)

(يأيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون).

وتكاد هذه الافكار ان تصبح ظاهرة في تجربة الخمرة لدى عرار .

وعلى الرغم من قلق افكاره وتناقض مواقفه فان صدقه الواقعي يعد افضل مايميزه عن غيره من الشعراء ، ومن اجل ذلك يعبر عن كل مايجول في نفسه وما يضمره في قلبه ، لايحابي احداً ، ولا يجامل انسانا ، ولايخشى في ذلك لومة لائم ، فهو صريح مع نفسه ، ومع الاخرين على حد سواء .

واقصر ملامك إنني رجل لقد بالكأس بعت خوابيا من ديني (٢٩)

(٣)

من الاشكالات التي تثيرها تجربة الخمرة في شعر عرار ، الموقف والرؤيا اللذان انطلق الشاعر منهما في التعبير عن همومه الواقعية ، فعرار احيانا يسعى الى الخمرة لتكون معادلا لشعوره بالاحباط الذي ألقى به في ظاهرة (مرض العصر) التي تنتج عن العجز في القدرة على تحقيق تطلعات الانسان ، وكان الشاعر يتطلع فعلا الى فيض من الآمال العريضة لمجتمعه كما يحكي ذلك شعره ، لكن ذلك لم يستجب له فارتد على اعقابه خائباً يائساً .

كان عرار يتطلع الى وطن حر تسوده العدالة والطمأنينة ، ويتحقق فيه الرخاء وطن لايعرف فيه الناس الذل والعسف ، ولايعكر صفوه دخيل ، وكان يتخيل مجتمعاً خاليا من الكراهية والحقد ، كالاستغلال والفقر ، مجتمع لامكان فيه للمزيفين والمنافقين والحاسدين ، لكن شيئا من ذلك لم يتحقق ، فإذا هو يواجه عالما يسوده الزيف وتعمه الطبقية ، عالما يغرق بالظلم والقبح ، وتتحول فيه القيم العالية الى

بادئ مزيفة ، كل ذلك ألقى به في احضان اليأس ، ووقفه امام الاحباط فإذا هو يصرخ :

هات اسقني (قعوار) ليس يهمني قول الوشاة (عرار) سكران (٣٠)
فالكأس لولا اليأس ماهشت له كبد ولا حدبت عليه يدان
والخمر لولا الشعر ماأنست به شفة الاديب وريشة الفنان

ويلحظ في الابيات ، العلاقة العضوية بين الفن الشعري وبين الحالة الرومانسية ، فالكأس واليأس والشعر والاديب وريشة الفنان ، تشكل حالة من الاندماج العضوي مع بعضها البعض الآخر .

وقد عبر تعبيراً مباشراً ، إذ افصح عن هذا الموقف الذي اسلمه الى شرب الخمرة فقال :

دعوني بهذا الكأس والطاس اتقي صروف الليالي كلما خطبها لجا (٣١)

قد تأكد اذا ان عرارا يلوذ احيانا كثيرة الى الخمرة ليسري عن نفسه هموم الحياة ومآسيها وموازينها ، وماتعرض له فيها من احباطات وهواجس نفسية قلقة .

وشعره في الخمرة يحتشد بهذه الدعوة ، ومن ذلك قوله : (٣٢)

هـات اسقنيها ياغلام فقد مضى (شهر الصيام)

ولعله اخذ هذا المعنى من بيت شوقي الذي يقول فيه :

رمضان ولّى هاتها ياساقي مشتاقة تسعى الى مشتاق

ويمضي شاعرنا في تأكيد هذا الموقف فيقول :

هيا لنسري عند من لم يعرفوا طعم الخصام
لهو السياسة للألى قد اتقنوا صنف الكلام
لبسوا الحرير وشعبنا يا (هبر) لايجد المضام

نقضوا العهود فلاعهو د ولا وفاء ولا زمام
فتراهم يتململون وفي الحقيقة هم نيام

والمفارقة التي انتهى اليها الشاعر حقا قد صارت عنده حلا لمعاناته النفسية

فقوله مثلا :

واذهـــب وعنـــي استضـــئ بنـــور راقصـــة الظلام

فالنور الذي يستضيء به الناس من حيث المبدأ ، يرتبط بالهداية ، وليس بالرقص او بالخمرة التي ترتبط به ، كما يرى هو في هذا البيت ، وهو مايشكل مفارقة انتهت اليها افكار الشاعر ، وآراؤه في الحياة ، بعد ان ضل السبيل الى إصلاحه ،

وقصائد عرار النقدية ترسم صورة كاملة الابعاد لما كان يراه الشاعر بوصفه فنانا ناقدا ، فالواقعية الاجتماعية هي الوجه الثاني الذي يعكس مأساة شعبه ، وهي تشكل مع الواقعية السياسية صورة كاملة للواقع السيء لبلده ، وقد ورد في شعره من مفردات هذه الصورة : (٣٣)

لولا الرغيـــف وفقر اهلـ ـك واحتيـاجك للطعـــام

هل كنت ترضيـــن الحيـا ة كذا وفي هذا المقـــام

يالقمـــة الخـــبز التي اشقت بحاجتها الانـــام

واذل مطلبـــها العـــزيز وفتٌ في عضد الهمـــام

وفي هذه الصورة تأكيد على العصب الحساس لانسانية الانسان التي لاتتحقق بوجود الفقر الذي يؤول الى الذل والمهانة والضعف والشقاء ، كما تشير بذلك ابيات الشاعر ، وهو مايفسر الحاح الشاعر على الوظيفة الاجتماعية والانسانية للشعر ، والتي حمل عبئها الشاعر ، وكانت عبئا ثقيلا على عرار انتهى به في كثير من الاحيان الى الشعور بالاحباط كما انتهى الى الكثيرين من شعراء جيله . وتفسير ذلك عندنا هو ان النصف الاول من هذا القرن حمل معه منعطفاً شديدا في تغيير البنية الاجتماعية العربية ، وقد كان الشعراء في طليعة من قادوا هذا التغيير ، الذي لم يكن طريقاً سهلا ميسرا بل كان صعبا ومعقدا طالت عواقبه الشعراء انفسهم وكان عرار واحدا منهم .

وقد ارتبطت الدعوة الى الاصلاح الاجتماعي بالدعوة الى الاصلاح السياسي ، حتى صار من الصعب ان نفصل احداهما عن الاخرى .

وعلى الرغم من اخلاص الشعراء وحماسهم في الدعوة الى الاصلاح الا ان هذه

الدعوة كانت ترتد الى حيث صدرت ، بل انها لم تجد آذاناً صاغيا حتى لدى المجتمع نفسه لضعف الوعي العام للمجتمع ، إذ لم تكن النهضة العربية حتى وقتئذ قد أتت اكلها ولذلك حققت في نفوس المصلحين – والشعراء في مقدمتهم الكثير من الاحباط ، اتضح في أنينهم وشكواهم كما عند الرصافي وحافظ ابراهيم وامثالهم وكانت دعوة عرار اشبه بنفخة في رماد وربما كان هذا الاحباط مسوغاً من لدن الشاعر لتبرير تهافته على الخمرة فالناس – عنده – هم السبب في لجوئه الى الكأس المعربدة (٢٤) :

علني بالكأس فالدنيـــا مهازلها طفت على الناس لكن شر طغيان

وقد يشتط عرار بسبب ذلك غضباً فيصرخ في وجوه الناس ليقول :

الناس أجلاس من دامت سعادته وكلهم خصم من يمنى بخســـران

ولذلك ينعتهم بنعوت قبيحة ويدعو الى عدم الثقة بهم :

غبر الوجوه اذا لم يظلموا ظلموا فلا تثـــق منـهم يومـــا بإنسان

وترتبط الخمرة العرارية بنقد المجتمع ارتباطا شديدا حتى تكاد تصير جزءا من نسيجه الموضوعي ولطالما شكا في قصائد الخمرة من الناس واخلاقهم وسلوكهم وطباعهم : (٢)

واذا نظمت الشـــعر قيل تكلف وأذا ادرت الكأس قيل خليع

واذا بكيت جوى ونحت صبابة قالوا وهيج الاربعيـن دموع

وتتوحد هموم عرار مع كل قصيدة تهز عواطفه الانسانية ، ومشاعره الوطنية ولذلك تزدحم قصيدة الخمرة بالمعاني البشرية العميقة ، اولها دفاعه عن المظلومين ونقده للظالمين كقوله :

فانتفى الانصاف والعدل عفى واسف الحكم فاستجبل سفح

وانـــا ماذقـت الا كأســـة عند (قعوار) وأخرى اذا ألحوا

فلسكري عنـــدهم متن وشرح ضربوا الامثال بي عربدة

كيف تحقق هذه الابيات مفارقة عجيبة في مجتمع يرى الظلم يغشى

الانسان فيلتذ به وقعه في حين يرى في شرب الخمرة – فقط – عملا قبيحا فكأني بالشاعر يعرض على المتلقي هاتين الصورتين ليوازن بين مايراه الناس ممكنا وما يرونه قبيحا على وفق الواقع المهتز للمجتمع والشاعر يحسم هذا الموقف اذ يرى ان سكره خير من ظلمهم فيقول :

ودع الساقي يدر كأس الطلا حسبـــــة لله فالسكـــر اصـــح

في زمان ليـــس للحـــق به اي صوت ان اسف الدهر يلحو (٣٥)

كانت معرفة الناس عند عرار مصدراً ثرا من مصادر تجربة الخمرة ، وانت تستطيع في هذا الشعر ان تفهم اخلاق الناس وطباعهم ونماذجهم البشرية المختلفة. وفي حديثه عن بعضهم يقدم الشاعر تشريحا واقعيا لعيوبهم وسيئات اعمالهم . وفي هذه الصور يتأسى عـرار بالخمرة لينتصر عـلى يأسـه ويجتـاز سياج إحباطاته (٣٦):

هاتِ كأسي كي به اصفع يأسي

الندامى قد مضوا كل لطيبات هواه

والوفا قد أقفر الا من بقيات شجاه

والصفا هيهات في منفاي عرف لشذاه

ويشتد شعور الشاعر بالاحباط حين يستقر في منفاه ، فيزور عنه الاصدقاء وينفر منه الندماء ويبتعد عنه الاخلاء فيهرب الى الخمرة فيرتشفها يائساً محبطا تخالطه في ذلك ذكريات قديمة كما تعاود الاطلال شعراء الجاهلية فيقول : (٣٧) الديوان / ٣٠١

شربت فعادني طرب قديـمَ هي الصهباء معقدها قديم

هل الخل الوفي اذا اكفهرت وجوه الود وانتكس الحميم

وفي هذا المعنى مايدل على ان الخمرة كانت وسيلة للتخفيف عن الهموم وتعويضا واقعيا عن الشعور بالوحشة في اوقات الشدة والمحنة حين يتنكر الاصدقاء لما كان يربطهم بالشاعر ايام الصفا وذلك احساس واضح بالغربة النفسية والمكانية وكان محمود سامي البارودي قد سبقه الى التعبير عن هذه الغربة .

وتحتشد صور الخمرة العرارية بالشكوى الحادة من المواقف المزرية تجاه الشاعر وخصوصا اولئك الذين تعززت علاقته بهم في الماضي وقد صور معدنهم الرخيص ونفوسهم المريضة وسجاياهم اللئيمة اذ هم تخلوا عنه في ساعات الشدة : (٣٨)

الديوان / ١٢٣

لِمَ يانداماي الذين حسبتهم سنا وناب
ومخالبا هو جاء تفقأ عين من أزرى وعاب
اسقيتموني لالعاً لكم لأنكم صحاب
كأسا زعمتم انها خمر فإذ هي كأس صاب

ولئن كان عرار اغرق في شرب الخمرة ، فلأنه وجدها وسيلة (تجلو عن قلبه الكثير من الهموم ووجدها ملاذه الوحيد من جور اللئام) عرار الشاعر اللامنتمي / ٢٠٠

ولئن شربت الكأس مترعة فمن جور اللئام الديوان / ١٤١

وكذلك ابتقي بها صروف الليالي ، كلما داهمته الخطوب ومن هنا كانت الخمرة (تمثل الملجأ أو الملاذ الذي يهرب اليه كلما سيطر اليأس على نفسه وتجهم له الواقع (٣٩)

وفي هذا المعنى يكرر الشاعر :

ادرها ايها الساقي ادرها انتظم الشرب
ودع عمان يسكرها الرياء الوقح والكذب (٤٠)

ونظن ان الشاعر لم يترك مثلبة او نقصا في مجتمعه إلاوأودعه قصيدة الخمرة . واذا تعكس خمريات عرار صورة صادقة لمجتمعه ، فهي تعد وثيقة لتفاصيل اخلاق الناس ونماذجهم المختلفة ، وسجلا حافلا تتوثق فيه حياة الشاعر ، وماصحبها من آمال وتطلعات ، وهموم واحزان وحب وكره وطموح ويأس وما اصابها من خير وشر وماتعرضت له من سجن وتشريد ونفي وتعذيب (٤١) :

واني في الهوى العذري طراد ومطرود
اخو حان والحان شكاواه أغاريد
حياتي مثلما انبو ك ارهاق وتشريد

وسجن بعـده منـفى وتعذيـب وتبعيـد

ولطالما سهده ليل وارقته هموم ، وهي هموم الحياة وكيد الكائدين :

يارب ليل لقد ارهقته ارقا مما اعانيه من كيد المناكيد الديوان / ١٨٠

ولو نظرنا الى النماذج البشرية التي شكى الشاعر منها لادركنا كم كانت معاناته التي ارهقته على مدار سني حياته .

وفي خمرياته ، يحكي عرار كيف تصدى للنماذج السيئة التي اساءت اليه ، بالشجاعة النادرة والمواقف المشهودة التي كان ينطلق منها للاعلان عن مبادئه العالية التي ظل يناضل من اجلها وينشد بها عالم الخير والمحبة والاثرة ، لافرق عنده بين غني ولافقير وحاكم ومحكوم وذهب الى ابعد من ذلك حين فضل مجتمع (النور) الذي اسس معه علاقات حميمة على اولئك الذين ينطلقون من تطلعاتهم الفارغة ، ويعيشون في ابراجهم العاجية .

ان هروب عرار الى تلك الفئة المتدنية – من الناحية الاجتماعية – كان يمثل موقفا ومعنى انسانيا من وجهة نظره على الاقل ، لانه وجد في عالمهم الفطرة والبداهة والسماحة ، لقد وجد عرار في مجتمع (النور) لذة الخمرة وصفاء المحبة ، وحلاوة الفطرة وبشاشة النظرة ، في حين انه لقي من الاصدقاء والاقرباء والندماء والاصحاب الكثير مما كان يؤرقه ويعذبه ويصده عن عالمه المنشود واغلب الظن انه وجد في تجربة الخمرة ضالته الشعرية ، فراح يطلق العنان لفنه ، يسري به عن آماله وآلامه ويعلن به افكاره وآراءه في الناس والحياة ، ويضمنه خلاصة تجاربه ، وحصيلة ماألزم به نفسه في عالمه الذي طالما تغنى به ، عالم النور والخمر والطرب ولذلك ارتبط ذكر (النور) وحياتهم وطقوسهم بشعر الخمرة .

لقد فضل الشاعر ، النور على مجتمعه ، بل انه من الناحية الواقعية كان اكثر انتماء الى طبقتهم وحين اشتد عليه اليأس راح يصرخ بصراحة :

ياهبر هات لي الربابة وانطلق بي حيث قومك اسهلوا ام اصحروا

انا منكم اصبحت لاارض ولا اهـــل ولا دار ولا لـي معـشر

وهذا يعني ان عرارا ، وجد ضالته التي كان يبحث عنها في مجتمع (النور) (حيث

الفطرة والوفاء والنقاء والحرية والمساواة) (٤٢) .

وإذ يعكس الفن الشعري القيم البشرية ويحقق في تعبيره عنها ثراء فنية عالية فان عرارا يقف في طليعة من حققوا هذا المنجز سواء في صدقه وعمقه وواقعيته ام في كثرة الشعر الذي طاله ولقد عبر احد الباحثين عن موقع عرار في تجربته الخمرية بقوله (ولعمري لو خلق (عرار) في زمن العباسيين وعرف (عبد الشيباني) العالم النحوي المشهور لقال (اشعر الناس في وصف الخمرة اربعة ، لاثالث : الاعشى والاخطل وأبو نواس وعرار) (٤٣) .

ويذكر لنا التاريخ الادبي ان الكثير من الاعمال الادبية قد احتل مرتبته الريادي العالمي لهذا السبب ، فقد عدت روايات بلزاك وثيقة خالدة عكست صورة صادقة لاخلاق العصر من خلال تصويرها للامة الفرنسية على اختلاف نماذجها (٤٤) وفي شعرنا العربي الحديث يقف في الطليعة الرصافي وحافظ ابراهيم وامثالهما فقد قدموا في شعرهم نماذج واقعية كاملة الصدق تجسد هموم الامة العربية بكل ماينتابها من قلق وحيرة ويأس وطموح (٤٥) .

من هذه النماذج الواقعية الصادقة ، قول عرار يصف ماتعانيه طبقة المحرومين والبائسين ممن عزت عليهم لقمة العيش ، وقد جعلها الشاعر عنوانا لاحدى لوحاته الواقعية : (٤٦)

لما وجـــدت مكـــارم الإخلاق في الدنيا كلام
ورأيت ان الميـــــن والتـــدليس أوفى بالمرام
حررت نفسي من قيو د الفصل في عرف الكرام
وزججتـــها في زمـــرة المتصعلكين مع الطغام
واهبـــت بالســـاقي ان اسرع بالسلافة ياغلام
وادر على الندمـــان حتى يثملوا كأس المدام
فالنـــاس عندهم الفضيـــلة كالرذيـــلة بالتمام
والحق اطيـــع من يتيـــم أمـــام مأدبة اللئام

وبعد رصده لهذه النماذج الفاسدة ، يوجه الشاعر نداءه الى فتاة فقيرة انحطها

الجوع وانهكتها هموم العيش فيقول :

يابنت يامـــن امـــرها ... لما تعاوجـــت استـــقام
لولا الرغيف وفقـــر اهلك ... واحتياجـــــك للطـــعام
هل كنت ترضين الحياة ... كـــذا وفـــي هـــذا المقـــام
يالقمة الخبـــــز التـــي ... اشقـــت بحاجتـــها الانـام
وأذل مطلبـــها العـــزيز ... وفـــتّ في عضد الهمـــام
تـــفٍّ على بشـــــرية ... الـــقت لمثلـــك بالزمـــام

واللوحة طويلة آثرنا ان نقتطع منها هذا الجزء لنؤكد على القيمة الموضوعية والانسانية فيها ، فضلا عما تحتويه من قيم فنية .

ان هذه اللوحة واحدة من عشرات اللوحات ضمنها عرار قصائده الخمرية التي جسدت وظيفة الشعر الانسانية العالية بما تحمله من دلالات عميقة وعواطف انسانية صادقة ، ومواقف رجولية ثابتة .

وقد حققت مفردات القصيدة بتشكيلها الفني اللغوي ، عفوية صادقة بعيدة عن التعقيد والتصنع كما ان المعاني التي تضمنتها الابيات من مثل مكارم الأخلاق والكذب والفضيلة والرذيلة والتدليس والحق والجوع والقهر وغيرها قد عكست دلالاتها الاجتماعية والانسانية والخلقية وانسجمت مع الايقاع الذي حققته الميم الساكنة المسبوقة بالألف كل ذلك حقق منجزا يندمج فيه المضمون بالشكل في وحدة فنية تلتئم مع البعد العميق لصدق الشاعر الذي حققته الابيات ، والمتمثل في اخلاص الشاعر لموضوعه وصدقه لعاطفته وفضلا عن الافكار الناضجة التي انطلقت منها معاني القصيدة .

ولو اتيح لنا في هذا البحث ان نتمثل بنماذج اخرى لهذه الظاهرة لأعيتنا المحاولة لكثرة ما يصادفنا من هذا الشعر .

والظاهرة التي تلفت نظر الدارس حقا هي شكوى الشاعر من تنكر الاصدقاء والندمان الذين تخلوا عنه في أوقات المحن ، ولذلك كثر حديثه عن الوفاء وتنكر الاصدقاء وابتعاد الندماء(٤٧) :

عفا الصفا وانتفى من كوخ ندماني وأوشك الشـــك ان يودي بإيماني
شربت كأســـا ولـــو انهـم سكروا بخمرتي وسقاني الصاب ندماني
لقلت ياســـــاق هلا والوفـــاء كما ترى تنـــكر ، هلا جدت بالثاني ؟

ويبدو لنا ان كثيرا من الاصدقاء الذين صحبوا الشاعر ايام نعيمه قد خذلوه وازوروا عنه أوقات محنته . وقد آلمه ذلك وحز في نفسه مما جعله يصفهم بالأفاعي المتخفية التي تسعى الى القضاء عليه وتنفث السم في جسده ورغم مواقفهم المشينة التي سعوا بها الى اسكات صوته الحر - يقول- ورغم احساسه بالضيق منهم الا انه ظل متماسكا يتحداهم وينعى عليهم مواقفهم المشينة تشد عزمه قوة الهية فتزيده - على حد قوله - علوا وترفعه مكانا(٤٨) :

كم من صديق لي يحاسنني وكـأن تحت ثيابـه أفعـى
يسعى فيخفـــي لين ملمسه عنـــي مسارب حية تسـعى
كم حاولت هـــذي معاولهم وأتـــى الإله فزادني رفعـا
اصبحت فردا لايناصرني غير البيان واصبحوا جمعا
ومناهم ان يحطموا بيـدي قلمـــا أثـــار عليهم النقعـا

وعلى الرغم من خصومته لهؤلاء ونعته لهم بأسوأ النعوت ، الا انه قد حز في نفسه ان يخسرهم ، وآلمه ان تفرق الجفوة بينه وبينهم يقول :

فدمعي من عذاب الحب جار وقلبي من فراق الصحب دامي

وعلى رغم مانلحظه من شعوره بالاعتداد وصموده في مواقفه تجاه من خذله من الاصدقاء الا أننا نحس باليأس يغلبه والألم يتفوق على كل اعتداد أبداه في شعره وارجح الظن ان الوفاء كان سمة متميزة في اخلاق الشاعر وان اعتداده به هو الذي عمق شعوره بالألم مما لقيه من خذلان اصحابه له وتخلي ندمانه عنه ، وهو واحد من الاسباب التي دفعت به الى الخمرة عساها ان تخفف عنه هاجس اليأس والقلق كما كان يراه - وتعيد اليه توازنه النفسي ، ولكن هيهات هيهات ان الخمرة كما يتفق اغلب الدارسين لم تكن عاملا فاعلا في إعادة توازنه النفسي ، ولذلك ظل يثور على ذلك كله ثورة عارمة ، فإذا هو يمتعض امتعاضا شديدا فيجعل من مواقف الناس - دون ما

هوادة – فضولا قبيحا وتدخلا مشينا ، وموقفا منه معاديا:(٤٩)

ماذا على الناس من سكـري وعربدتي ماذا على الناس من كفـري وايماني
ماذا على الناس من لهـوي ومن عبثي ماذا على الناس من جهلي وعرفاني
ماذا على الناس من قـولي لهم أحد ربـي ، وقولـي لهـم : ربي لـه ثان
ماذا على الناس من جهـلي ومعرفتي ماذا على الناس من ربحي وخسران
ماذا على الناس من صفوي ومن كدري ماذا على الناس ان دهري تحدانـي
ماذا على الناس من فقـري ومتربتي ماذا على الناس من ظني واحسانـي
ماذا على الناس مـن حبـي مكحلة بين الخرابيـش أهـواها وتهـواني

من حيث المضمون ، فان هذه الابيات تعكس المفارقة الشديدة بين مواقف وافكار الشاعر من جهة ، ومواقف وافكار الناس من جهة ثانية ، ذلك ان عرارا – كما هو معروف – وكما يبدو في شعره كان يتحدى المواضعات الاجتماعية والعادات المألوفة التي كانت تشكل عند الناس قيماً لايسهل تجاوزها والوقوف منها مواقف صارمة كالتي كان الشاعر يعلن عنها في شعره ، والا تعرض للنقد والتشهير والقطيعة بينه وبين مجتمعه .

يبدو لنا ان هذه وتلك كانت تتصدر المواقف التي تحدى بها عرار مجتمعه قيماً وافكارا ومواقف ومبادئ .

وقد عبّر احد الباحثين عن ذلك بقوله (كان عرار شاعرا بوهيميا يعشق حياة الانطلاق والتلهي ، بعيدا عن الضوابط والقيود المتواضع عليها في مجتمعه ، وكان يجد ذاته الحقيقية في حياة المرح واللهو ، وقد يشكل هذا التطرف رد فعل لما حرمه في مجتمعه الذي حده من حريته الشخصية ، وقد كان يسؤوه كثيرا ان يتدخل الناس في سلوكه الشخصي) (٥٠) .

ومن الناحية الشكلية فان هذه القصيدة كتبت بعناية اسلوبية يتصدرها الاستفهام ويسودها التكرار ، والتكرار في الشعر هو تسليط الضوء على المناطق الحساسة في النص وقد شكل مجتمع الشاعر بؤرة حساسة في التشكيل اللغوي والتعبير عن المضمون وعكست المفردات اهتماما يشي بالمفارقة الواضحة بين

الشاعر وبين مجتمعه ، كما تعكس الابيات مفارقة اخرى تتراوح بين ثورة الشاعر على المجتمع ، وبين احساسه باليأس والخيبة من المجتمع .

ويرى باحث ان هروبه الى الخمرة والنور يعكس اغتراباً نفسياً ومكانياً وزمانياً ، انتهى به الى الشعور بالاحباط والى العزلة الروحية (٥١) .

وإذ نحس بطول الوقفة امام هذه المسألة - المجتمع في شعر الخمرة - فلأنها تلقي بظلالها على هذا الشعر ولأننا نحس بان العلاقة بين الشاعر وبين المجتمع هي التي قذفت به الى بؤرة الخمر ودفعته الى (النور) حيث انواع الفساد وحرية الممارسة فيه ، وآلت فيه في آخر الامر الى العزلة عن الناس حيث اليأس والاحباط شعورا لايفارقه .

وتعبر الابيات التالية عن هذا الشعور فيقول : (٥٢)

اين الندامـــى مضـــوا كل بطيته	وخلفوني بهذا الكوخ وحـداني
فلا كـــؤوس ولاســـاق ولاوتـــر	يشنف اليـــوم واويلاه آذانـــي
ياوحشة الكوخ اضفي فوق وحشتنا	دمعاً نهله من سقف وجـــدان
فان عبرتنـــا اودت بهـــا نـــوب	كانت وما برحت تجتاح اوطاني
والصحب اضرب حتى عن إعارتنا	دمعا تموج بقاياه بأشـــطاني

(٤)

رسم عرار صورة كاملة الابعاد للخمرة فأشار الى شكلها ولونها وصفائها وفائدتها وندمانها وكؤوسها وسقاتها ، حتى يكاد لايترك شأنا من شؤونها الا ومسّه بريشة الفنان المقتدر بعيدا عن الصنعة والبهرجة اللغوية يؤازره في ذلك بساطة التعبير وجمال التصوير قلما نجد ذلك عندشاعر آخر مع قدرة على إيصال التجربة الى المتلقي .

ومن حسن حظ الشاعر ان الدارسين لشعره يحتفظون بأسماء العشرات من اصدقائه وندمانه ، وممن صحبوه ايام أُنسه واوقات يأسه وهم كُثْرٌ مابين طبيب ومحام وشاعر وكاتب وتاجر وموظف . وقد ذكر في خمرياته اسماء الكثيرين منهم ،

واورد احد الباحثين قائمة طويلة باسماء معظمهم (٥٣) ويعد شعر عرار سجلا حافلا بأسماء الحانات التي غشيها وقد اجتهد في اطلاق تسميات خاصة عليها ومنها دار الحكمة وكوخ الندامى الذي قال عنه : (٥٤)

(كوخ الندامى) قد تقلص ظله وعراسه أقوين من ندمانه

ومن الاسماء التي اطلقها في عمان على بعض المغاور والأمكنة (مغارة أبي نورة) و (الكوخ) و (كوخ الاكواخ) و (الصومعة) و (جرف الدراويش) في اربد ، وفي خمريات عرار كان للمكان حضور واضح ، إذ بقي الشاعر مشدودا للحانات التي توزعت على مدن عديدة من ذلك عمان ومادبا ، كقوله :

عمان ضاقت بي وقد جئتكم انتجـع الآمـال في مادبا

اما وادي السير ، فيثير في نفسه ذكرى خمرته وعلاقاته بالنور :

سأفتح حانة وابيـع خمرا (بوادي السير) لكن للندامى

كما يذكر ربى (جلعاد) بقوله :

وسوف اذا الربيع اتى وهشت ربى جلعاد وانتحر ابتساما

وفي بيت آخر يذكر وادي السير مقترنا بوادي الشتا:

ليت الوقوف بوادي السير اجباري وليت جارك ياوادي الشتا جاري

أما (وادي اليابس) التي تقع شمالي بلدة عجـلون فقد اطـلق اسـمه على ديوانه (٥٥) .

وسار عرار على خطى الاقدمين من شعراء الخمرة ، فقد وصفها وصفا دقيقا ووصف مجالسها وسقاتها وما يكتنفها من اجواء العبث والتمتع بطعمها ولم ينسَ صفاءها وتأثيرها في النفوس ، ونعتها بالعصماء للإكبار من شأنها فقال :

ياشارب الخمر بغير ماء (٥٦)

ان قلت عنها ليس بالعصماء

فأنت عين قلة الحياء

وفي القصيدة يكرر لفظة «العصماء» ثلاث مرات ، ليسلط الضوء على قيمتها العالية كما يطلق عليها بـ (الحصباء) والصهباء فيقول :

جوهـــرة قاتلها حصبـــــاء

قد نضبت من عنده الصهباء

ويشير الى نوعها المعروف بـ (الكونياك) وهي خمرة معتقة :

اعني بها الكونيـاك يابليد

معـــتق لاينفـــع الجديـــد

ويذكر نوعها الآخر وهي (البيرة) فيشير الى نوعها وصفاتها وهي في الكأس فيقول :

عليك بالبيراء يامستاء

لونها في كأسها صفاء

ويتابع اوصافها بدقة متناهية ، فيشير الى الفقاعات التي تظهر عليها حين تصب في كؤوسها الصافية ، والى الألوان التي تتلون بها هذه الفقاقيع :

ان الفقاقيع لها لألاء

ويشير الى ماتحدثه من الآثار في الشاربين :

شاربها لاتقرب الضراء

يحسب ان صيفه شتاء

ومن الندامى من ارتبط اسمه بخمرة عرار ، وتكرر ذكره في معظم قصائدها ، من هؤلاء (ابو ناصيف) :

فأدر كؤوسك ياأبا ناصيف مترعة روّية

اما (قعوار) فقد ارتبط ذكره بالخمرة اللذيذة والمعتقة ، واقترن غالبا بالاجواء التي يسودها الغناء والرقص والطرب :

فنبيذ قعوار اللـــذ يذ وأنة الناي الشجيّة

وهيامنا بالغانيـــا ت من الامور الجوهرية

ولم ينسَ ان يدقق في اوصاف الجميلات اللائي يملأن جو الخمرة وشربها بالسعادة والحب فيذكر منها قدودها وجمال عيونها :

ان القدود المأدبية والعيون المجرمية

اشواقـــها ستظـــل في قلبي وان اوديت حيا

ويتردد كثيرا في وصفه للشرب ومجالسه ، ذكر الناي والمزمار والقيان :

والشرب معتكف على نـــاي ومزمـــار وقينـــه

واللافت للنظر حقا ، ان عرار قد استثمر الخمرة في التصوير الشعري ، وعلى الخصوص في تصوير اشواقه ومواقف هواه ومن ذلك قوله يصور عيني المرأة :

سكرانة الالحاظ مرحمة حني علي بنظرة سكرى

(٥)

اذا عدّت اللغة وعاء فنيا للمعاني والافكار ، فان ذلك يقتضينا ان نسجل رأينا في لغة شعر الخمرة عند عرار .

ولغة شعر هذا الشاعر تقوم على البساطة في التعبير ، والسهولة في التركيب والعفوية في الاداء ، اما الخاصية التي تتمتع بها لغة شعره في الخمرة فصار له فيها قاموسه الخاص البعيد عن الانتقاء المصطنع وهذا الحكم يشمل ايضا التشكيل الفني للغة ، فقد عرف عرار كيف ينتقي الفاظ شعر الخمرة وكيف يبني بها عباراته الشعرية وكيف تستوي هذه العبارات في تشكيلها الصوري آخر الامر .

اما لغة الصورة فتجسد المستوى الشعبي للذين رافقوا الشاعر في مسيرته الخمرية وقد عبرت هذه اللغة عن البيئة الشعبية لها ولشاربيها ، لذلك فان توظيف التراث الشعبي كان من اول سمات هذه اللغة ، ويتمثل هذا التراث بأشكال عدة اهمها استخدام :

(المفردة الشعبية في النسق اللغوي العام داخل البيت الشعري ، معتمدا في ذلك على قوة دلالة المفردة السياقية لما تستثيره لدى المتلقي من مشاعر (٥٧) كقوله :

ان الصعاليك مثلي مفلسون وهم لمثل هذا الزمان (الزفت) خبوني (٥٨)

وقوله :

واني من زبائنها اخو (شيش) و (دوبارة) (٥٩)

ومن هذه الاشكال توظيف العبارة الشعبية ، كقوله :

ياراهب الدير تبنا عن محبتهم وقد أبنّا (فلا كاني ولا ماني) (٦٠)

ومن هذا القبيل قوله :

ويسألونك عن حالـــي اماشية فقل لهم : انها تمشي به لِودا (٦١)

ومن هذه الاشكال ايضا (توظيف المثل الشعبي داخل بنية القصيدة بحيث يصبح المثل الشعبي جزءا من النسق البنائي العام للقصيدة) (٦٢) .

وسواء أكان الاستخدام مفردة ام عبارة ، ام جاء مثلا شعبيا او غيره ، فان هذه الظاهرة في شعر عرار ، لاتقتصر على شعر الخمرة فحسب ، بل هي تعم شعره كله وهي لكثرتها قد اضعفت من فنية الاداء اللغوي في القصيدة العرارية ، على الرغم من انسجامها مع السياق العام للقصيدة . وقلما تحقق جمالية الاداء ، إذ تبدو احيانا مقتحمة على البيت او ان طاقتها التعبيرية تكون محدودة بما يضمره الشاعر نفسه ، ولكن الملتقي قد لايجد في دلالتها مايجده فيه الشاعر نفسه .

وهذا هو الذي يلحظه دارس شعر عرار وهو ما قد حد من جمال الطاقة التعبيرية للغة عرار ، وبالتالي اضعف فيه الصورة الفنية ، ولدعم رأينا هذا نحيل القارئ على الابيات التالية : (٦٣)

فسل (ميشال) في عمان عـنا تجد رجلا بحالتنا خبيرا

بأنا نشرب (الكونياك) صـرفا ويشرب غيرنا عرقا وبيرا

فكم قبض المعاش وما قبضنا من اسباب المعاش ولا نقيرا

فلو اننا احصينا الالفاظ والعبارات الشعبية ، مثل (ميشال) و (الكونياك) و (بيرا) و (عرقا) و (المعاش) واضفنا اليها الكلمات ذات الاستخدام البسيط الذي يخلو من الطاقات التعبيرية مثل (قبضنا) و (حالتنا) و (صرفا) و (نقيرا) و (خبيرا) . اقول : ان اجتماع هذه الالفاظ والتعبيرات التي يجعلها ضعف الطاقة التعبيرية المطلوبة في النص الشعري ، قد اثقل كاهل الابيات ، وافرغه من الطاقة الخيالية ، وغيرها من الجماليات المطلوبة في الشعر فما الذي يبقى من هذه الابيات بعد ان نطرح هذه الالفاظ والعبارات ؟ نقول ان شعر عرار بعامة ، والخمرة منه بخاصة تسوده مثل هذه الظاهرة التي تضعف جماليته الضرورية ومن ثم تلقي به في وهاد التقريرية والنثرية

والخطابية .

ونقرأ هذين البيتين من قصيدة (ليلتي بالحصن) يقول فيهما (٦٤) :

ليلتي بالحصـــن ماأحلاك ليلة　　قد جمعتيني بأخبار الأخله

ان من لايشرب الخمرة جحش　　ان من لايشرب الخمرة ابله

نقول ماالذي نراه من جماليات في هذين البيتين وماالذي يمثله التكرار في البيت الثاني ، وما الفكرة التي تقوم عليه ، وما وظيفة الشعر الذي فيه ، وأين جمالياته وفنه، ودعك من الخطأ الموجود في عجز البيت الاول في كلمة (جمعتيني) والصحيح (جمعتني) ان القارئ المدقق في شعر عرار يجد الكثير من امثال هذا الذي لايرتفع الى مستوى الشعر من حيث هو فن .

لقد اساءت هذه السمات وامثالها الى شعر عرار مما لاتحمده عليه اما الافكار التي حققها شعر هذا الشاعر فكثير منها لايرشحها الى الانتماء الى الشعرية . من ذلك قوله : (٦٥)

واشرب علـى نمطي كمـــا　　تأتم بالشيخ المعيه

ترك التقـــى خـــــير بعلم　　الله من نسك التقيه

فأي فكرة تحملها صورة هذين البيتين ، اذا عددناها صورة ؟ فإذا كانت الفكرة هي الاساس الذي تقوم عليه عناصر الشعر الاخرى ، فما الذي يبقى من الشعر في البيتين ، وإذا كانت فكرتهما فاسدة غير مقبولة ان نحن عرضناها على العقل والمنطق ، فكيف يكون عصيان الله خيرا من نسك التقية ، ثم كيف تم للشاعر ان يطرح هذا الافتراض الفاسد والخاطئ !

ويقول في مكان آخر (٦٦) :

راهب الرحمـــــن إني　　نضو جنـان دنانك

سم بالرحمـــــن وادن　　شفتي من ثغر جانك

نقول : اذا لم تكن فكرة هذين البيتين عبثا وسخرية بأمور الاسلام الذي صرح الشاعر في اكثر من مكان من ديوانه بأنه يؤمن به إيمانا عميقا لالبس فيه ، فما الذي يعنيه البيتان اذا ، وماالفكرة التي يقومان عليها ؟

أهو تناقض الشاعر مع نفسه ، أم هو الاستهانة بما يؤمن به ؟!

(٦)

في موضوع الفكرة الشعرية الخمرية ، يتأثر عرار بأكثر من شاعر خمر عالجوها في شعرهم ابي نواس مثلا ، لمن في حكم المؤكد ان شاعرنا قد تأثر بأفكار عمر الخيام تأثرا شديدا وربما دفعه ذلك الى ترجمة رباعياته ترجمة نثرية .

يقول الدكتور زياد الزعبي محقق الديوان (٦٧) في هذه الابيات يبدو الشاعر – عرار – متأثرا الى مدى بعيد بعمر الخيام ، لابل ان هذه الابيات تكاد تكون ترجمة لبعض رباعيات الخيام في ترجمة البستاني :

فبأوراق كرمة كفنوني
ويكرم بين الاصول ادفنوني
واغسلوني بالخمر فالخمر فاقت
بصفاها ذاك الزلال الحلالا

وفي ترجمة عبد الحق فاضل للرباعيات ، نجد هذه الرباعية :

ياأحبائي اذا مت بالراح اغسلوني
ومتى كفنتموني فبخمر لفنوني
وإذا احببتم في الحشر ان تلمسوني
فتحروا ارض باب الحان عني تجدوني

وواضح ان التشابه ليس في الفكرة فقط ، بل نجد تماثلا في اللفظ .

ولقد درس احد الباحثين تأثر عرار بالخيام واستطاع ان يجلي هذا التأثير في كثير من شعره . يقول الباحث (تشيع فلسفة الخيام وروحه في جل منظوم عرار ومنثوره ... ولقد حمله تأثره بالخيام على ترجمة رباعياته نثرا ، ونشرها في عام ١٩٢٥ م فصولا في مجلة منيرفا) وقد دل الباحث على ذلك فيما عرضه من ابيات عرار التي يقول فيها : (٦٨)

قال الاطباء لاتشرب فقلت لهم الشرب لاالطب شافاني وعافاني

علي بالكأس فالدنيا مهازلـــها طغت على الناس لكن شر طغيان

وقريبا من هذا يقول عمر الخيام : (٦٩)

وربيـــع الحياة عهد الصباء وحياتـــــي كهـــذه الصهـــباء

حلوها المر فهي طبي ودائي عيشتي نشوتـــي وعمري شبابي

ومن يشأ قراءة عرار في خمرياته ، يجد الكثير من هذا التوافق ، بين افكاره وأفكار عمر الخيام ، كما يجد شيئا من هذا التوافق بينه وبين أبي نواس .

ولولا ان استعراض هذه الشواهد يطيل بنا الوقفة ، لاحتكمنا الى مايؤيد مانذهب اليه .

تلك اذن هي الافكار التي نلمسها في خمريات عرار وهي كما لاحظنا ، افكار مشوشة يسودها القلق والاضطراب وبعيدة عن النضج ، وانها تتناقض بين الحين والحين مع بعضها البعض ، كما ان بعضها بعيد عن العقلانية ، كما هو بعيد عن الواقعية وربما كان قلق الشاعر وهواجسه النفسية التي تضطرب بين الحين والاخر ، واصطدامه بمجتمعه ، كل ذلك قد ألقى به في حومة العزلة ، وحصره في دائرة الوحدة ، وقذف به الى احضان اليأس ، واوحى اليه بالاحباط الممض ، فعاش حالة (مرض العصر) التي طالت كل شعراء الرومانسية في العالم ، فتحطمت بذلك آماله ، وانعكس ذلك في شعره الذي يعد خير وثيقة لحياته وسلوكه وافكاره ، وصحيفة سجل فيها الشاعر حياة جيله ومجتمعه ، وما يضطرب فيهما من خير وآمال وأماني وتطلعات .

الهوامش

١- ينظر : الشعر الجاهلي - خصائصه وقنونه/ يحيى الجبوري / ٣٩٤ / قطر ١٩٧٩.

انظر : تطور الخمريات في الشعر العربي/ جميل سعيد

أساليب الصناعة في شعر الخمر/ محمد محمد حسين

الحياة العربية في الشعر الجاهلي / احمد محمد الحوفي

فن الشعر الخمري وتطوره عند العرب / ايليا حاوي

٢- ينظر ديوان حسان ص ٤

٣- ينظر ديوان عدي بن زيد / ٧٨

٤- الشعر الجاهلي / يحيى الجبوري / ٣٩٦

٥- ينظر ديوان الأعشى / ٤٥ - ٤٧

٦- ينظر ديوانه / ٢٢٧ - ٢٢٨

وكذلك : الشعر الجاهلي / يحيى الجبوري/ ٣٩٦

٧- العصر الجاهلي / شوقي ضيف / ٣٥٥ / القاهرة ١٩٦٦

٨- ينظر / العصر الاسلامي / شوقي ضيف/ ٣٧٥ / القاهرة ١٩٦٣

٩- المرجع السابق / ١٨٢

١٠- دراسات في الشعر العباسي / عطا بكري / ١٨/ بغداد ١٩٦٧

١١- المرجع السابق / ١٩٤

١٢- ينظر قصيدته التي مطلعها :

وخمارة للهو فيـــها بقيـــة
اليها ثلاثاً ذيو حانتها سرنا

١٣- نفسية أبي نواس / محمد النويهي / ١٢

١٤- المرجع نفسه / ١٥

١٥- المرجع نفسه / ١٧ - ١٩

١٦- ديوان عشيات وادي اليابس / مصطفى وهبي التل - عرار / ١٢٨ / ١٩٨٢

١٧- الديوان / ١٠١

١٨- الديوان / ٣٤٦

١٩- الديوان / ١٢٧

٢٠- الديوان / ٢٧٧

٢١- الديوان / ١٢٢

٢٢- الديوان / ٣٠٩

٢٣- الديوان / ١٥٢

٢٤- ينظر عرار - الصورة والرؤية في شعره / عبد القادر الرباعي / ص ١٣ / ملتقى عمان الثقافي / ١٩٩٦

٢٥- الديوان / ١٥٤

٢٦- سورة البلد / آية ١٠

٢٧- الديوان / ١٤٧

٢٨- سورة المائدة / آية ٩٠

٢٩- الديوان / ٣٤٢

٣٠- الديوان / ٣٤٧

٣١- الديوان / ١٤١

٣٢- عرار / الرباعي / ٣٩

٣٣- الديوان / ٣١٣
٣٤- الديوان / ٣٧١
٣٥- الديوان / ١٥٣
٣٦- الديوان / ٤٤٣
٣٧- الديوان / ٣٠١
٣٨- الديوان / ١٢٢ - ١٢٣
٣٩- عرار - الشاعر اللامنتمي / احمد ابو مطر / ٢٠٠ / عمان ١٩٧٧
٤٠- الديوان / ١٠١
٤١- الديوان / ١٧٤
٤٢- الثورة والاغتراب في شعر عرار / جهاد المجالي / ٢٧ مجلة مؤتة / عدد ٦ / ١٩٩٢
٤٣- عرار شاعر الاردن / ٧٧ . البدوي الملثم
٤٤- ينظر - الرومانتيكية / محمد غنيمي هلال
٤٥- ينظر : ديوان الرصافي وديوان حافظ ابراهيم
٤٦- الديوان / ٣١١
٤٧- الديوان / ٣٦١
٤٨- الديوان / ٥٨٣
٤٩- الديوان / ٣٦٥
٥٠- مجلة مؤتة للبحوث والدراسات / ٢٩
٥١- المرجع نفسه / ٣١
٥٢- الديوان / ٣٧٠
٥٣- ينظر عرار شاعر الاردن / ١٥٢
٥٤- المرجع نفسه / ١٥٦
٥٥- انظر عرار شاعر الاردن / ١٨٣ - ١٨٧
٥٦- الديوان / ٤٥٦
٥٧- ادباء اردنيون / عبدالله رضوان / ٤٢ / عمان ١٩٩٦
٥٨- الديوان ٣٤٩
٥٩- الديوان / ٢٤٢
٦٠- الديوان / ٣٥٦
٦١- الديوان / ٢١٧
٦٢- أدباء اردنيون / ٤٣
٦٣- الديوان / ٢١٤
٦٤- الديوان / ٥٤٨
٦٥- الديوان / ٤٣٢
٦٦- الديوان / ٤٤٦
٦٧- عرار شاعر الاردن / البدوي الملثم / ٧٨-٨٤
٦٨- الديوان / ٢٧١
٦٩- رباعيات الخيام ترجمة وديع البستاني / دار المعارف / ط٢ / ١٩٥٩ / ص ٤